المقتطف

الجزء الاول من المجلد المائة و الواحد

١ يونيو سنة ١٩٤٢ — ١٧ جمادى الاول سنة ١٣٦١

اوربا بين عهدين

صروف ناشد يحيى

الموازنات التاريخية كثيرة المزالق ، اذا اريد بها استخراج احكام عامة . موازنة بين حادثين بعينهما ، أو بين رجلين من الافذاذ . فليس في الوسع ان نستخرج حكماً تاريخياً أو حربياً عاماً ، من المقابلة بين زحف نبوليون على موسكو في شهر يونيو سنة ١٨١٢ ودخوله العاصمة الروسية في سبتمبر ، وبين زحف هتلر صوبها في يونيو كذلك من سنة ١٩٤١ وعجزه عن دخولها حتى الآن . ولكن اذا كان طريق من الكتّاب قد استسلم الى استخراج احكام عامة ، لا سند لها ، من هذه المقابلة ، فان ذلك لا يعني اننا لا نستطيع ان نجني فائدة ما ، من المقابلة بين الاحوال العامة في العهدين — عهد نبوليون وعهدنا هذا . في الطب مثلاً ليست كل اصابة بالانفلونزا مماثلة تماماً لكل اصابة أخرى . وكل دعي طبيب لمعالجة حالة من هذا القبيل ، عليه ان يتذكر انها في ناحية ما منفردة ولا مثيل لها . واذا أهمل ذلك فقد يخفق في مهمته . ولكن عليه ان يتذكر كذلك انها تشبه الحوادث الاخرى في كثير من النواحي العامة والاحكام التي تجري عليها جميعاً . ولولا ذلك ، لكان ارتقاء علوم الطب مستطاعاً ، ولا لخبرة الطبيب قيمة . فالطبيب يجني من خبرته ومن خبرة من تقدّم وتحاربهم — أي من التاريخ — فائدة كبيرة . والواقع ان المهندسين والمحامين والفلاحين ، وغيرهم من رجال الاعمال ، يعملون ما يعملون استناداً الى ما يصح ان نسميه [illegible]

التاريخية historical uniformities اذا عدُّوا هذه التشابهات احكاماً مطلقة وبنوا عملهم على ذلك ارتكبوا خطأً فاحشاً ، ولكنهم اذا نظروا وجودها اطلاقاً كان خطأهم أفحش . وحتى ذلك فالموازنة — في نطاق هذا الموضوع — ليست بين حملة نبوليون وبين حملة هتلر على روسيا ، ولا بين شخصي نبوليون وهتلر ، بل هي موازنة بين الأحوال العامة والعوامل المتشابهة في تاريخ اوربا الاجتماعي ، في عهد نبوليون وعهدنا هذا

***

نشبت حرب اوربية عامة (١٧٩٢ — ١٨١٥) بعد انقضاء ثلاث سنوات على قيام الثورة الفرنسية . وكان اشتراك فرنسا في الثورة الاميركية ضد بريطانيا قبل ذلك ، قد رفع قليلاً من منزلة الطبقة الحاكمة في فرنسا ، إلاّ أنَّ الفرنسيين كانوا قد هزموا هزيمة منكرة في حرب « المائة سنة » مع بريطانيا ، وفقدوا امبراطورية كبيرة في الهند وشمال اميركا الشمالية . وكانت حكومتهم مفلسة في سنة ١٧٨٩ وطبقات الشعب العامة تستنكرها وتتهم عليها . وكان زعماء الفكر فيهم ، قد مضوا جيلاً كاملاً وهم يدعون الى اصلاح منشآتهم السياسية والاقتصادية والدينية ، أي انهم كانوا يدعون الى انقلاب عام ، أو ثورة اذا شئت . وما دعا لويس السادس عشر « المجلس العام » الى الانعقاد في سنة ١٧٨٩ حتى قبض على زمام هذا الاصلاح الثوري . وبعد فترة قصيرة من الوحدة ، عقد فيها الرجاء على بعث الأمة بعثاً جديداً ، بأساليب الاصلاح السلمي ، اتجهت الثورة الى العنف ، فأسقط البيت المالك ، وانتقل السلطان رويداً الى الجماعات المتطرفة ، وتخلل انتقالهُ ، ما نشهده عادة ، من أعمال الارهاب في مثل هذه الاحوال . وفي اثناء « حكم الارهاب اليعقوبي » كان الحكم في يد فئة قليلة ، حكمت بالقوة بعد ما الغت جميع الحقوق المدنية . وما جاءت سنة ١٧٩٣ حتى كان الارهاب موجهاً الى اعداء الثورة الحاكمة في الداخل ، والى اعداء فرنسا في الخارج كذلك . فنشبت الحرب بين فرنسا والحلف النمسوي البروسي ، في ابريل ١٧٩٢ ، امتدَّ نطاقها حتى أصبحت حرباً ضدَّ « الحلف الاوربي الاول » وقد اشتركت فيه كل اوربا تقريباً ما عدا روسيا وتركيا ، ضدَّ فرنسا الجمهورية . وكان الفرنسيون الذين دخلوا معمعة هذا النضال ، والحروب التي تلتها ، مسيَّرين بعاملين اولاً — الرغبة في تحرير الدول الاخرى من الاستبداد . وثانياً « فرنسة » هذه الدول ولو كان ذلك يقتضي ضمها الى فرنسا . ولم يكن بين رجال الثورة الفرنسية ، من يرى تناقضاً بين الغرضين ، لايمانهم بأن كل دولة تصبح جزءاً من النظام الفرنسي ، تكون دولة حرَّة وان هذا الطريق هو الطريق الوحيد الى الحرية

لم يصب الفرنسيون نجاحاً في سنتي ١٧٩٢ و١٧٩٣ في الحرب وهددت باريس نفسها .

ولكن تجريد الجيش الشعبي الكبير ، وادماج ضباط الجيش القديم في الجيش الحديث ، والاستعانة بالعلماء والمخترعين والمهندسين ، وظهور فريق من القوّاد النوابغ — ولم يكن بونابرت الاّ احدهم وان كان اعظمهم — افضى الى انقلاب ميزان القتال ورجحان كفة فرنسا. إلاّ ان هذا النجاح لم يكن مردّه الاول والاخير الى قوة فرنسا ، بل كان جانب كبير من مرده الى ضعف خصومها ، وتمسكهم بأساليب الحرب القديمة ، واحجامهم عن الاتحاد ضدّ الفرنسيين . والمؤرخون يعدّون خمس تحالفات اوربية انشئت لمقاومة فرنسا بين سنة ١٧٩٢ وسنة ١٨١٥ . ولو حاول كاتب ان يضع في جدول واحد كل من من الدول الاوربية كان مع فرنسا او ضدّها او محايداً لكانت الصورة مضطربة وتخرج من بحثه هذا بحقيقة واحدة وهي ان بريطانيا دون غيرها كانت ضد فرنسا خلال هذه المدّة كلها اذا استثنينا الفترة القصيرة التي أعقبت صلح اميان سنة ١٨٠٢ . والواقع ان المحالفة الكبرى ضدّ فرنسا لم تعقد وقوة اوربا لم تحشد تماماً إلاّ في سنة ١٨١٢ وبعدها

وما تقلّد بونابرت منصب القنصل الاول سنة ١٧٩٩ وعزز مقامهُ وأيد طائفة كبيرة من الاصلاحات التي بدىء فيها سنة ١٧٨٩ ، حتى كانت الجيوش الفرنسية قد اكتسحت البلاد الواطئة وغزت المانيا وايطاليا . ثم أتمّ نبوليون نفسهُ امبراطوراً وسيداً لاوربا . وكان عندما بلغ أوجه قبل حملته على روسيا ، قد أحدث في خارطة اوربا من التعديل ما يبعث على الدهشة

في قلب هذا النظام الجديد كانت فرنسا ، بعد تنظيمها تنظيماً جديداً . وفرنسا هذه كانت تشمل بلجيكا وهولندا والساحل الالماني الى همبورج وشمال ايطاليا بما فيها تورينو وجنوى وبارما ومنطقتين أخريين وكان هو امبراطورها . ثم كان هناك الممالك التابعة يحكمها أعضاء اسرة نبوليون — مملكة إيطاليا وهي تشمل عالم يضمّ الى فرنسا من ايطاليا الشمالية والوسطى وكان نبوليون يحكمها بواسطة نائب ملك هو ابن زوجته أوجين ده بوهارنيه . ومملكة نابولي يحكمها عديلهُ مورا . ومملكة اسبانيا يحكمها شقيقه يوسف . واتحاد الرين وهو يشمل المانيا الغربية والوسطى وكان شقيقه جيروم ملكاً على وستفاليا فيها . ودوقية وارسو ولم يتح لها امير من اسرة بونابرت . وكانت سويسرا مستقلة ولكنها في الواقع كانت تابعة . وبقي ذلك حلفاء فرنسا وهي النمسا وروسيا — بعد تضييق نطاقها — والدول اسكندنافية ، وأخيراً كانت روسيا مرتبطة بفرنسا بمعاهدة تلسيت . ولم يكن خارج هذا النظام الفرنسي في قارة أوربا إلاّ جزيرتا سردينية وصقلية يحميهما الأسطول البريطاني ، والبرتغال يحميها الجيش البريطاني الصغير بقيادة ولنغتن

أما بريطانيا فكانت خارج هذا النظام لم تنتظم فيه رضاها ولا أرغمت على الانتظام مع ان نبوليون حاول مرتين حشد جيش على ساحل المانش لإخضاعها . ولكن بعد معركة الطرف

الآخر ابتعد شبح الغزو النبوليوني على الساحل البريطاني، ونبوليون نفسه انصرف عن طريقة الغزو الى طريقة حصر بريطانيا بمنع أوربا من الاتجار معها، حتى تصاب باضطراب اقتصادي يفضي الى اذعانها. ولا يحتمل انهُ قصد الى تحويلها، فقد كانت تملك سيادة البحار، وارتقاء الصناعة فيها لم يكن قد بلغ مبلغاً يحوجها الى استيراد معظم طعامها من الخارج

والفرنسيون لم يفوزوا بالسيطرة على القارة الاوربية، بفضل القوة الحربية المتفوقة لاغير بل كان لنبوليون أعوان في كل بلد. نعم إنَّ الجماعات التي كانت ميالة الى التعاون مع فرنسا كانت أقلية، ولكنها كانت في شمال ايطاليا وبلاد الرين أقلية كبيرة يحسب لها حساب. ويضاف الى هذا ان الحكم النبوليوني في الممالك التابعة، أفضى الى اصلاحات غير يسيرة، استرضت جماهير الناس مدة ما. وفي سنواته الاخيرة، اعتمد على جنود من الايطاليين والبولونيين والالمان وغيرهم. ومع ان الاعتماد عليهم كان غير تام، إلاَّ انهم كانوا يصلحون لبعض الاغراض. غير ان ذلك لم يغنه عن الاعتماد على عدد وافر من الفرنسيين في ادارة البلدان التابعة لفرنسا وحفظ الأمن فيها، وخاصة لأن بوادر البرَم لم تختفر من بلد ما، وفي اسبانيا لم تقبض الادارة الفرنسية على ناصية الحال تماماً، وقتاً ما

بدأت مغامرة نبوليون الاسبانية في سنة ١٨٠٧، « لحماية اسبانيا من الانكليز ». وبدا انها أصابت نجاحاً عند ما توّج يوسف بونابرت ملكاً في مدريد. ولكن ثورة الشعب الاسباني على الفرنسيين، برغم سحقها بالقوة، كانت الثورة الشعبية الاولى على السلطان الفرنسي في اوربا. وكانت المقاومة الاسبانية المستندة الى الجيش البريطاني — وهو لم يخرج من جنوب اوربا الغربي — فعالة في حمل نبوليون على الاحتفاظ بطائفة من صفوة جنده في اسبانيا وانهاك هذه الصفوة. فلما أبى القيصر اسكندر الروسي الاشتراك في الحصر الاوربي ضد التجارة البريطانية، وبدأ نبوليون حملتهُ على روسيا ومزقت أوصال جيشهِ الامبراطوري في الزحف والارتداد، أشرف النظام الأوربي النبوليوني على نهايته، إذ جمعت حكومات أوربا عزمها وحزمت أمرها على الاتحاد عليه. ولم يكن اتحادها هذا ميسّراً، لأن صيت نبوليون قد طبق الخافقين، وكان يُعدُّ قوة لا تُقهر، وكان لابد حتى بعد عودته مقهوراً من روسيا، من كل حذق الساسة البريطانيين ومنزلة القيصر اسكندر ودهاء مترنيخ، للفوز بانشاء « الحلف الكبير ». وكانت النتيجة ما سجلهُ التاريخ عن تقلص ظلّ السيطرة الفرنسية في أوربا ونزول نبوليون عن العرش في فونتنبلو ونفيهِ الى جزيرة البا وعودته منها والفترة المعروفة باسم « فترة المائة يوم » ثم معركة واترلو

* * *

كلُّ هذا يشبه كثيراً ما توالى علينا من الاحداث في بضع السنوات الأخيرة ولرشاء الباحث، لوضع محل « البعقوبيين » في الثورة الفرنسية « الحزب النازي » في المانيا، ومحلّ

« شرطة الثورة » و « كتائب الجستابو » ولوصف الجماعات النازية لفرنسا في ايطاليا والمانيا بالطابور الخامس او جماعة كويزلنج ، ونظام نابوليون بالنظام الجديد . ولقال ان صلح اميان في ١٨٠٢ كاتفاق ميونخ سنة ١٩٣٨ أمنتهما غبة في مهالاة نابوليون وهتلر

ولكن هذا قليل الجدوى ولا حاجة بنا اليه . فهتلر كنابوليون ، توسل بالقوة العظيمة المنطلقة من حركة ثورية ، لغزو معظم القارة الاوربية . وكلاهما واجه مشكلة عظيمة نواتها تنظيم فتوحاتهما في دولة كبيرة تعلو على الدول القومية التي غرست ، لترسيخ اقدام الغزاة وتمكين تحكمهم . وقد أخفق نابوليون في اخضاع بلد عظيم واحد ، هو بريطانيا ، واخفق كذلك في انشاء تلك الدولة الاوربية الخاضعة لسيطرة الفرنسية . فاذا مضت الموازنة بين الرجلين الى نتيجتها المنطقية ، فهتلر سيخفق كذلك على طول المدى . وقد استغرقت المدة اللازمة لظهور اخفاق نابوليون ربع قرن من الزمان . فهل في عهدنا عوامل طرأت على الاجتماع الاوربي ، من شأنها ان تبطل الموازنة القائمة بين مصير نابوليون ومصير هتلر ؟

قبل سنة ونصف سنة من الزمان بدا المتتبعي الحال ، ان هتلر قد يتمكن من غزو بريطانيا فيقضي على القوة الحربية الاوربية الاخيرة التي اعترضت سبيل نابوليون ، وظلت تعترض سبيله . واذا كان ذلك لم يتم فيجب ألاّ نستسلم الى ان المحاولة لا تجدد وان كان احتمال نجاحها الآن بعيداً . وما فتئت تلك المنطقة الضيقة من المياه التي حالت دون تحقيق حلم نابوليون ، تعترض سبيل هتلر . وحرب هتلر على الملاحة البريطانية الآن اشد خطراً من حرب نابوليون ، لأن بريطانيا أكثر اعتماداً على ما تستورده من مواد الطعام . ولكن معركة « المحيط الاطلسي » سائرة بوجه عام في مصلحة بريطانيا مع ان خسارة الملاحة في بحار الارض ليست مما يستخف به . ويجب ان نضيف إلى ان هتلر يجد في الولايات المتحدة الآن خصماً كبيراً قوياً لم يتعين على نابوليون ان يواجهه . واذا كانت الولايات المتحدة غير متأهبة تأهباً يذكر عندما فرضت عليها الحرب في دسمبر الماضي ، فكذلك كانت بريطانيا غير متأهبة لحرب البر في سنة ١٧٩٩ — ١٨١٤ . وعلى كل حال فجميع الاحصاءات والآراء تدل على ان اميركا تسير سيراً حثيثاً في ميداني التأهب الحربيّ والانتاج الحربي الصناعي

وهناك عامل آخر يفرق من الكتاب ، يرى ان الفرق الكبير بين عهد نابوليون وعهد هتلر ، هو ان التقدم في صناعة الآلات الحربية الحديثة يمكن فئة قليلة من الجنود المحنكة المسلحة بطائرات ودبابات ورشاشات ، من ان تبقي شعوب بأسرها خاضعة لها ، فلا تتكرر الآن في فرنسا او غيرها من البلدان المغزوة ، ثورة أسبانيا أيام نابوليون . وقتال العصابات في بعض هذه البلدان معها يتجلّ فيه من ضروب البسالة والوطنية ، عاجز عن اكراه الالمان المسلحين ، على ايخاء قبضتهم ، ما دام السلاح الحديث وصناعته وقفاً عليهم

ولا ريب في ان مقاومة من نوع مقاومة الاسبان لنبوليون ، قد تكون شاقة في هذه الايام . فمن المتعذر مثلاً ان توزَّع الاباذات على الثوار سرًّا ، كما كانت توزَّع البندقيات وسائر الاسلحة الصغيرة . ولكن ، يجب ان نذكر انهُ لولا تأييد الجيوش النظامية للمقاومة الشعبية في أسبانيا في أيام نبوليون لما أجدت المقاومة الشعبية في قهر نبوليون . والجيوش النظامية ، كانت حينئذٍ جيوش ولنغتن في شبه الجزيرة الايبيرية . وثورة الشعوب المغلوبة في عهد نبوليون ، لم تنبّ شعوباً قويّة فعالاً الا بعد عودة نبوليون من روسيا هزيماً . أما الآن فان الروس يحاربون ببسالة عجيبة ، وبراعة فائقة ، وثقة راسخة ، وبريطانيا وأميركا تمدانهم بالمعدات علاوة على ما يصنعونهُ هم في معاملهم . وجيش هتلر أصيب ، ماديًّا ومعنويًّا مع انهُ لا يزال جيشاً قويًّا . واذا تمكن الحلفاء من سيادة جوّ أوربا الغربية بطائراتهم ، فالجيش الذي يقابل جيش ولنغتن ، يستطيع ان ينشىء لهُ قواعد على البرّ الاوربي ، وعندئذٍ تقد تتماثل الاحوال ، على الارجح . ويجب ألاّ ننسى ان نشوء الصناعة الحديثة ، وتعقيدها ، واعتماد الجيوش عليها اعتماداً دقيقاً ، يجعل هذه الصناعة وتلك الجيوش عرضة لخسارة فادحة عن طريق تخريب يسير في مواقع حيوية ، وهذا التخريب قد يتم عن طريق المدنيين في البلدان المحتلة ، أو عن طريق المغيرات القاذفة .

والالمان بشر بوجهٍ عام ، وهم معرضون للتأثر بعوامل الصداقة والحب والتراخي والملل في البلدان التي يحتلونها او يحرسونها . واذا كان اعتماد الالمان في هذه الحراسة على المفتونين المتحمسين من شبابهم الهتلري ، فمن يتقلد زمام الحكم في المانيا نفسها اذا وزعت النخبة التي يعتمد عليها في طول القارة وعرضها ؟ حتى اذا كان في الوسع توزيع النخبة ، فهل تغيرت البواعث الاصيلة في طبيعتهم تغيراً يمكنهم من ان يمتنعوا زمناً طويلاً عن الحب والشهوة والصداقة وغيرها من العوامل التي أضعفت الحاميات الاجنبية في جميع البلدان في العصور السابقة ؟

في العصر الاغريقي القديم ، كان أبناء سبارطة ، قد دربوا تدريباً طويلاً دقيقاً يفوق في طوله ودقته تدريب الشباب الهتلري ، على حساب الواجب والامر الصادر اليهم من الزؤساء فوق كل شعور أو عاطفة . ومع ذلك فان الحامية السبارطية في ثيبة ضعفت حالتها المعنوية بعد بضع سنوات ، فوقعت ضحية لمؤامرة دبرها وطنيو ثيبة وطردت من المدينة . واذا كانت الاسلحة الحديثة أفتك من الاسلحة القديمة ، وهي وقف على الحامية على الاكثر في العصر الحديث ، فان الطبيعة البشرية لم تتغير بواعثها الاصيلة كثيراً خلال الفي سنة من الزمان

ثم عامل ثالث . يقال ان رجال النازي يملكون أداة لم تكن متاحة لنبوليون ، فتمكنهم من الاحتفاظ بسلطانهم على الامم المغلوبة . وهي اداة «الدعاوة» . فالاسلحة الحديثة في أيديهم تقضي على الثورة عليهم . والدعاوة الحديثة في أيديهم تقضي على مشيئة الثورة .

وقد قيل في هذا المعنى الكثير . فمن سنة او نحو كان هناك من يزعم ان الالمان هم زعماء « ثورة الجماهير » في أوربا . وان الجماهير في كل أمة أوربية يستعدون للترحيب بهم لانهم يرون فيهم منقذيهم من النظام القديم ، وان جميع العادات والتقاليد والمثل الاجتماعية والثقافية القومية قد أصبحت من مخلفات الماضي . ومع ذلك نجد ان مشيئة مقاومة النازي يشتد ساعدها ويتسع نطاقها يوماً بعد يوم من بلاد تروج الى يوغسلافيا ومن فرنسا الى بولونيا . وهذه المشيئة قومية لا ريب في ذلك . والدعوة سلاح ذو حدين ، للنازي أحدهما لا غير . ومهما يفعل النازي فانهم حيال فرنسا او غيرها أعجز مما كان نابوليون حيال البروسيين . بل لا ريب في ان دعوة الفرنسيين القائمة على مبادىء الثورة الفرنسية الكبرى ومبادىء الحرية والمساواة والاخاء كانت أفعل جداً من كل ما يقوله جوبلز . بل ان فعال الالمان في تشكيا وبولونيا وسربيا وفرنسا وحتى في ايطاليا ، أبلغ من كل ما يقولون . ومهما تكثر الايحاديث فهؤلاء القوم لا يمكن ان يرضوا عن النظام الالماني الجديد

من الجائز ان يتمكن الالمان في بضع السنوات المقبلة ، من استئصال شأفة المقاومة في البلدان المحتلة ، بممارسة تجويع الجماهير واعدام الزعماء والمفكرين وما أشبه من أساليب القسوة والافناء . ولكن البشر قادرون في اشد الاحوال مشقة وقتاماً على ان يقاوموا مقاومة قد لا يتصورها العقل ، لانها نابعة من أعماق الفطرة وغريزة البقاء . واذا استخرجنا من علم الطب استعارة قلنا ان سم المرض النازي إما ان يميت الشعوب ، وإما ان يدفعها رويداً رويداً الى توليد حصانة ضده . واذا صدقت عبر التاريخ السابقة ، عدنا الى القول بأن الثاني أدنى الى التحقيق

قال روشفنج ان هتلر لا يستطيع ان يقف عند حدٍّ ما ، وان شهوة العظمة فيه ستدفعه الى المضي في طريق تفتح الى ان يصاب الالمان بالاعياء . وقد يكون هذا الحكم صائباً . فنابوليون ، لم يقف حتماً عند حد قبل فوات الاوان . ولكن حتى اذا توقف هتلر او خذلاؤه عند حد فتوحاتهم الحالية وحاولوا ان ينشئوا من هذه البلدان دولة كبرى ، لما كان نجاحهم محتملاً . فالحكم على طول المدى يقوم على « القبول والعادة » . والقبول غير محتمل ، والعادة لا تفرخ كالفطر ، بل تربّى وترسخ زمناً طويلاً ويجب ان تكون تربيتها في احوال يرضى عنها المحكومون . ولا يبدو ان بريطانيا والولايات المتحدة وروسيا ستتيح لألمانيا فرصة تربية شعوب أوربا على عادة التسليم بالنظام الجديد . ومما لا ريب فيه ان روسيا وبريطانيا لم تتيحا لنابوليون مثل هذه الفرصة مع ان سلطانه ظل قائماً مدى خمس عشرة سنة [1]

(١) يلخص وأب لسل الدكتور ابن برلين استاذ التاريخ في جامعة هارفرد وصدر له عدد من الكتب في «الشؤون الدولية» وقد كتب قبل دخول الولايات المتحدة الحرب ولذلك تعرضه في نبوءته هذه وقد [illegible]